

بين العروبة والإسلام

● الاسلام في كافة مظاهره : في عقائده ، وعبادته ، ونظمه ومعاملاته ، لم يكن لطائفة معينة او جنس خاص ، بل كان يطالب الانسانية كلها بعقيدة واسلوب في العمل ، ولا يفاضل بين الناس الا بمقدار ما يقدمون من اجل العقيدة ، وبنوعية ما يعملون طبقاً لهذه العقيدة .

● من حظ العرب ان اختيروا لرسالة الاسلام ، ومن حظ العروبة انها كانت احد الوية الاسلام . وهو الذي افصح عن مواهبها وساهم في تاريخها فامتزجت به في امجد ادوارها ، والمسلمون في العالم لا يؤلفون قومية واحدة ولا وطناً واحداً .

● ان العروبة هي واقعنا الذي لا غنى لنا عنه ، وحاضرنا الذي لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذي لا وجود لنا الا به . . مسلمين ومسيحيين ، والذين يخلقون الاكثوية القائلة بأن الاسلام هو القومية العربية هم المستعمرون .

قد يتخيل البعض ان موضوع العروبة بالذات ، والفصل بينها وبين الاسلام مركب صعب . غير اني قبل كل شيء ، احب ان اصارح القراء الاعزاء باني افخر بعروبتى مثلاً افخر باسلامي ، واني لاسمح لنفسى في هذا المقام ؛ ان اتبنى بعض الفرائد التي نطق بها الخالدون فأقول : لو لم اكن عربياً لتمنيت ان اكون عربياً ، ومن هذه الروح اصوغ عبارات بحشي هذا ؛ ومن وحيها سأحاول ان اسلط الاضواء حول هذه القومية العزيزة وانفخ في حناياها قبسة من نار الحياة ونورها ، وانفض عن مرآتها الجلية ، بعض غبار الزمن وبعض لطخات الصدا ، عساها تعود كما بدأت قومية فتية بناءة ؛ تكن فيها كل عوامل الخلود والبقاء .

فترة حاسمة :

ان التاريخ الآن يمسك قلمه ، ويتطلع نحو البلاد التي تشرق منها الشمس . ويرنو ببصره نحو الربوع التي تواكب مغربها ، والتاريخ حينما يمسك بالقلم ويرقب شعباً من الشعوب ، فان هذا الشعب قادم على اخطر مرحلة من مراحل حياته سلباً او ايجاباً .

ونحن العرب في هذا الزمن بالذات يحق لنا ان نتفائل مسبقاً بالمستقبل الضاحك ، ويحق لكم ايها القراء الاعزاء أن تعتبروا انفسكم من الخالدين لانكم تواكبون فترة خالدة من تاريخ العرب ، هذه الفترة التي سيقراً عنها احفادكم غداً ، وسيقولون : هنيئاً لهم لقد شهدوا يقظة العروبة .

سيقول البعض : انني اغرق في التفاؤل ، وسيقول آخرون لقد نطقت عاطفته . ولكني ادعو هؤلاء واولئك ، فاقول لهم انظروا الى مصر التي كانت الى عهد قريب تربط ماضيها وحاضرها ومستقبلها بالرعامسة والفراعنة ، وتسير في ذلك النهج حقبة طويلة من الزمن ، لايناها منه الا الضيم والاحتلال والذلة والامتهان ، ثم اذا هي تصحو على فجر دافىء ، تنبع انواره من ذاتها ، من ذات الشعب المصري ،

فتظهر لها حقيقتها العربية الصريحة ، وخيالها الفرعوني الكاذب ، وتفرض بهذا الحقيقة وجودها واراقتها واحترامها على دول الأرض جميعاً .

لست اريد من وراء ذلك ان اذهب الى ان العروبة هي التي نصرت ارض الكنانة ، أو انها على الاقل هي التي عاونتها على اجتياز المحنة ، والتغلب عليها ، ولست اريد من ناحية اخرى ، ان انفي فعالية الوطنية المحلية وصمودها الجبار في معركة الشعب المصري . ولكنني اريد ان اقرر حقيقة واحدة ، وهي ان العروبة في مصر وفي سورية وفي الاردن وفي لبنان هي المرحلة الناضجة من مراحل تطور الوطنية . وانه في اللحظة التي يتفاهم فيها العرب جميعهم على انهم عقد واحد ، يشع جمالا أخاذاً ، ويشكل في مجموعته ثروة هائلة ، اما في افرادهم فليسوا سوى بضعة احجار كريمة ، ليس لها قيمة العقد المنظوم ولا قدره . اجل في الوقت الذي يتعارف فيه العرب على اختلاف دولهم انهم عقد ثمين واحد ، وان رابطة هذا العقد هي العروبة فقد عرفوا الطريق الذي يمتد بهم نحو الغاية التي ينشدونها جميع شعوب العالم ، وهي الرخاء والعزة والسيادة والاستقلال .

بين العروبة والاسلام :

وانه لمن المؤسف حقاً ، ان ينفخ بعض ذوي الاغراض من اوراق الاستعمار نغمات طائفياً دينياً ، لا غاية له ولا هدف ، الا تفريق الكلاة وتصديع الصفوف والاطاحة بالوحدة الوطنية التي تجمع شتات فئات هذا الوطن ، حول الميثاق الوطني المعقود عام ١٩٤٣ والذي اعتنقه لبنان الرسمي بمجرد دخوله الجامعة العربية وابرامه ميثاقها وتوقيعه على بروتوكول الاسكندرية .

هذه النخمة المقيتة ، ارتفعت بها بعض الاصوات الناشزة ، رداً على الموقف الذي وقفه الشعب اللبناني من قضية العدوان الآثم على مصر ، بقصد عزل لبنان عن

المجموعة العربية، وشل كل نشاط يمكن ان يقدمه لخدمة القضية الكبرى التي يناضل من اجلها العرب .

وقد دفعتني هذه النعمة الى اختيار هذا البحث بالذات، لأنها كانت تهدف الى الايهام بان العروبة تعني الاسلام . وانه لا يمكن ابدأ الفصل بين العروبة، كقومية والاسلام كدين؛ فهما متلازمان كل التلازم ، مندجان كل الاندماج .

ومن المؤسف ايضاً ان يقع في هذه المزالق—عن حسن نية طبعاً—بعض قادة الفكر في هذا البلد، فيخاطون بذلك مع الاسف بين العروبة والاسلام، ويزعمون ان مؤسس الاسلام هو مؤسس العروبة، متجاهلين بذلك كل وقائع التاريخ وكل الحقائق العلمية التي هم ولا شك حريصون عليها حرصهم على معرفة الحقيقة .

وسنحاول الآن في هذا البحث ان نجلو هذه النقطة الدقيقة الخطيرة ، التي يتمسك بها بعضهم عن سوء نية مدفوعاً بعوامل كثيرة لا تشرف في كل حال ، والتي ينادي بها البعض الآخر عن حسن نية ؛ دون ان يتحروا بذلك الدقة العلمية والتاريخية .

ولسنا في هذا المقام نقف موقف المدافع عن العروبة؛ لاعتقادنا انها ليست بحاجة الى دفاعنا. ولا لنرد على فرد معين ، بل لنعرض بعض الحقائق التاريخية التي تثبت ان العروبة ليست فعلاً هي الاسلام ، وانه وان كان من ايجاد العروبة انها كانت جندي الاسلام الاول .. فمن مظاهر قيامها بنفسها ، ان الاسلام—في بعض مناسكه الدينية—قرر عاداتها وتقاليدها؛ وأقرها حتى انها في النهاية حملت اسمه ؛ وهي من أفعال العرب الأولين .

ثم إن الباحث في هذا الموضوع يصادفه منذ البداية سؤال واحد : ما هو الاسلام ؟ وما هي العروبة ؟ وما هي الصلة بينهما ؟ وهل كان الاسلام كدين سماوي لا يحمل على الاعتقاد بأنه ظاهر الرعاية للعرب دون غيرهم من الأمم ؟

الاسلام للانسانية :

لننظر الى الاسلام نظرة عاجلة؛ ولنحاول أن نستخلص منه بعض الصور الناطقة بانه لم يكن في يوم من الايام دين العرب فقط لا اعتبار واحد بسيط ، وهو ان الله حسب المفهوم الاسلامي هو رب العالمين ، وان محمداً حسب التعبير القرآني رسول للناس كافة .

والاسلام في كافة مظاهره : في عقائده وعباداته ، في نظمه ومعاملاته ، لم يكن انانياً قط ، ولم يحارب الاديان التي سبقتة ، بل دعاها اليه للمجادلة والبحث بروح من الفهم العميق ، والسماح الرائع ، وسعة الصدر ، وحسن الخلق فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي احسن » وكان ذلك بعد ان أقر لجميع الناس بحرية العقيدة « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم » .

وبعد ان وضع القاعدة المثلى للسلوك العقائدي الاسلامي الذي لا يؤمن بالاكرام ويقدر العقل النير « لا اكرام في الدين قد تبين الرشد من الغي » وبعد ان أكد ان محمداً ليس الانبياء يوحى اليه ، كما اوحى الى عيسى من قبله ، وكما أوحى الى موسى من قبلهما ، وكما أوحى الى داود ونوح قبل اولئك جميعاً فقال تعالى « إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » .

ولو ان الاسلام أقر للعرب بشيء من الفضل أو السابقة ، لرفع قدرهم وأجل شأنهم ، واطهر ذلك للملأ . ولكنه جعلهم مسؤولين عن الفكرة وتنفيذها كغيرهم من الناس ، وانه ليس لواحد من بني البشر ان يفضل أخاه ابداً الا بالتقوى (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) وذكر العربي بالذات . ثم انه من ناحية أخرى

فرض على العامة إطاعة أولياء الامر ، دون النظر الى عروبتهم أو الى اعجميتهم ، ودون التفريق بين ألوانهم وأجناسهم فقال : (اسمعوا وأطيعوا ولو رآي عليكم عبد حبشي رأسه كزبدية) .

ثم ان قريشاً وهي القبيلة التي كان منها النبي ، وشرفت بنبوته في أعين النسا بين العرب ، وبلغت شأواً بعيداً ، قريش هذه فضل بعض الفقهاء شرف العلم على نبالتها حينما بحثوا قضايا الكفاءة بين الزوجين .

فأين هي - قرائي الاعزاء - آثار تدليل الاسلام للعرب ، حتى يتجرأ اناس على القول بأن الاسلام هو العروبة ؟

اسمحوا لي ان اكون صريحاً الى ابعد حدود الصراحة ، وان أسير في الشوط حتى النهاية . فهناك بعض الاسئلة تحرق شفاه الناس ولا يبدونها . وهناك بعض المخاوف تدمدم في صدورهم ولا يظهرونها ، وأنا منذ نشأت عدو التخفي والخوف ، والرياء والحذر ، اذا كانت بضاعة رائجة بين الاخ وأخيه والشقيق وشقيقه .

العروبة لا تخيف احداً :

لنتصارع ، فالعالم بأمره يعلم ان العروبة لا تخيف ، وليس لها ادنى خطر على جميع العقائد ، اسلامية ومسيحية ويهودية .

قلت اسلامية ، لان فريقاً من المسلمين يعتبر العروبة خطراً على الاسلام كاعتبار بعض المسيحيين لها ، فيجب محاربتها والقضاء عليها في نظر الفرقة جميعاً .

ان العروبة لا تخيف ... لأنها وطنية سامية وقومية هادية ، تجمع كل الملل والنحل . ففيم الحيرة إذن ، وعلام الريبة والشك ؟ أمن الاسلام ، أمن ذلك الدين الحنيف العادل المترفع ؟

ان الذين يحاربون العروبة يريدون لها - قوة واقتداراً - ان تكون في صف الاسلام، حتى تتكون ضدها جبهة من تجار الاديان المتحالفة ، ولان نعتها بالاسلام، وجعلها بديلاً عنه وجعله بديلاً عنها يخدم هؤلاء التجار ، ويوفر عليهم عناءً كبيراً في إذكاء نار الطائفية وبث سمومها ، وبالرغم من اننا بصدد البرهنة على ان العروبة قومية من القوميات التي كثر فيها المسلمون وليست الاسلام نفسه ، بالرغم من ذلك، فاننا سندفع بإيجاز شديد عن هذا الدين بعض ما اتهم به معتقدوه، دون ان نجافي عنصر الموضوع ؛ لأن العروبة قرينة الاسلام وشريكته في هذا الاتهام .

المساجد والصوامع في القرآن الكريم :

لنستمع معاً الى قول الله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصاوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » ألا نلاحظ فيه انه يعتبر صوامع الرهبان شقيقة لمساجد اتباع الاسلام ؟ ثم ألم يكن الاسلام نبيلاً حينما قدم معابد النصرى واليهود على مساجد المسلمين ؟ ان سلوكه في هذه الناحية سلوك مفعم بالتسامح والاكبار والاجلال لأهل الكتب السماوية من اليهود والنصارى . فقد حظر على المسلمين ان يستخدموا معابد الذميين لأداء الصلاة حتى لا يدعي المسلمون فيما بعد حقاً عليها . وما زال يتخايل أمام ناظري ظل الخليفة العادل عمر ابن الخطاب ؛ وهو قائم يصلي خارج كنيسة بيت المقدس، لا شيء إلا ليؤكد للمسلمين عملياً احترام المسلم لأخيه المسيحي احتراماً يقوم على محبته وتقديره للكنيسة .

أما ما فعله قبل ذلك الصحابي الصادق ابو بكر رضي الله عنه ، وما اوصى به جنده حين سيرهم في سبيل الله ، من اجتناب البغي والعدوان ، والامتناع عن قتل الاطفال والنساء والشيوخ ، وحين نهاهم عن التعرض بقليل او كثير للرهبان المنتثرين في صوامعهم في البلاد ، كل ذلك اصبح مشهوراً بين الناس ومعروفاً ، ولست اجد فائدة من تكراره في هذا المقام .

الملوك المنحرفون :

لقد احترم ديننا أتباع الاديان الاخرى احتراماً لا يمكنه حزب سياسي في القرن العشرين لأنصار حزب سياسي آخر ، وإذا كانت الظروف السوداء قد جعلت على بعض العروش المسماة على الاسلام ملوكاً يحملون اسماء اسلامية ، ويحكمون بغير ما أنزل الله ، كما حدث في الازمنة الاخيرة للاسلام ، فليست هذه جريمة الدين بل جريمة رجاله ، وليست مبرراً للحملة عليه بل على القائمين بأمره .

ولكي نظهر مدى هذا الاحترام الذي يضمه الاسلام لسائر ابناء الديانات الاخرى ؛ علينا ان نلجأ الى القرآن الكريم وهو اصدق دليل عندنا ، وفيه ما يدل بوضوح على اعتباره التقديسي لروح الموسوية الصحيحة إذ يقول « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا » وفيه ما يطمئن المسيحيين صراحة بأنه يحل المسيحية الربانية ايما اجلال ، ويكرم نبيها ايما تكريم إذ يقول له « يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا » .

وسالة الاسلام وحقيقة القومية :

اظنني استطعت الايضاح عن موقف الرسالة الاسلامية من اتباع الرسالات الاخرى ، واستطعت وضع النقاط على الحروف ؛ حول بعض الالتباسات التي كانت تثار ، وتشور من ورائها الشكوك عن ارتباط الاسلام بالعروبة ؛ وانني لا اعتقد انه امكنني الاثبات ، بأن الاول هو دين سماوي لاتهمه القوميات ولا الشخصيات بقدر ما يهمه العمل والاخلاص ، وان الاخيرة هي قومية قائمة بذاتها ، لها تاريخها وحضارتها ومدنيتها السابقة على الاسلام وعلى المسيحية ايضاً . وانها تتميز بالمعنى التاريخي بخدا وط كبرى ، وشخصية منفردة جديرة بالبحث والدراسة .

بقي الآن ان نثبت للعروبة تاريخها المنفصل عن الاسلام ، وحضارتها الفردية ذات الطابع العربي الخاص ، وانها كان لها رجالها وامجادها ، وكانت لها حقبة من الزمن لعبت فيها الدور الاساسي الاول ، في سياسة هذه البلاد ، وحكمها وشؤونها . وقبل ان نخوض هذا البحث التاريخي العرف ، نحب ان نوجه الانظار الى بعض الملاحظات الهامة التي تعبر عن وجهة نظرنا تعبيراً صادقاً بدون غموض .

اولاً : على الذين يؤمنون بأن الاسلام هو العروبة ان يؤمنوا بالمقابل بأن المسيحية هي الانكليزية مثلاً أو الافرنسية أو الايطالية أو الاسبانية .

ثانياً : من حظ العرب ان آمنوا برسالة محمد وحملوها الى جميع الانحاء ، واذا كان انتسابهم اليه ؛ يجعلهم بدلاً عنه ، فلماذا تكون الاندونوسية بديلته ايضاً ؟

وفي هذه المناسبة تحضرني حادثة طريفة ، كلما مرت بمخيلتي ازددت اعجاباً بالعروبة ، وتعلقاً بها ، وازددت ايماناً بأننا هنا في لبناننا الحبيب ؛ حملة رسالتها قبل غيرنا من الشعوب العربية . والحادثة هي : أن اول مجمع لغوي عقد في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، وجرى فيه التساؤل الذي يحيرنا الآن ، وهو : هل نحن عرب قبل ان نكون مسلمين أم نحن مسلمون قبل أن نكون عرباً ؟ .

وجواباً على هذا التساؤل تبارى مندوبو الدول العربية في رسم الحلول وترتيب النتائج .

امما مندوب لبنان وكان يومها الشيخ عبد الرحمن سلام امين سر الفتوى إذ ذاك فقد ارتجل هذين البيتين :

قال عبد العزيز قولاً حكماً	والصواب الذي يقول الامام
نحن قبل الاسلام عرب ولكن	نحن بعد الاسلام عرب كرام

حضارة العرب قبل الاسلام :

والآن لنرجع الى التاريخ القديم نقلب صفحاته بإمعان وتجرد ، بحثاً عن حضارة العرب ومدينتها .

هذه واحة خصبة تمتد في الطرف الشمالي من الصحراء العربية يكتنفها دجلة والفرات ، وسهول حلب وحمص وانطاكية ، وواحة دمشق وسهول حوران . انها تدمر عاصمة أذينة والزباء ، عاصمة الدولة الفتية التي لعبت دورها الخالد في التاريخ .

لقد تنبه الرومان الى الموقع الاستراتيجي الهام لهذه الواحة ، فأرادوا ان يستولوا عليها نحو عام ٣٦ قبل الميلاد . فهاجمها قائدهم مرقس انطونيوس عندما كان عائداً من حرب الملوك الارشكيين .

وما ان وصلت انباء هذا الغزو الى مسامع التدمريين العرب ، حتى هبوا لملاقاة القائد الروماني الغازي دفاعاً عن مدينتهم ، ونشبت بين الفريقين معركة من اعنف المعارك قدّر فيها للتدمريين ان ينتصروا وان يحطموا النير الاجني .

ولكن الرومان لم يأسوا فهم يعرفون اهمية المركز التجاري والحربي لمدينة تدمر ، ويعرفون ان الاستيلاء عليها ضرورة من ضرورات البقاء لامبراطوريتهم ؛ فعمدوا الى فرض الحصار الاقتصادي عليها ، وانهبوا يعتدون على القوافل التدمرية ، وينهبونها بعد ما صمد في وجههم جيشها الباسل .

وظلت تدمر على صمودها نحواً من قرن ، ولكنها اضطرت امام الضيق الاقتصادي الناتج عن الحصار ، وتوالي غارات الرومان على تجارتها ، اضطرت الى الارتقاء في حضن الامبراطورية .

ولكن ارتقاءها هذا لم يفقدها طابعها الحضاري ، ولم يوقف نمو مدنتها مما ساعدها بعد قليل على الانتفاض والثورة في وجه الفاتحين .

وكان ذلك في عهد اذينة الاول ابن السميدع وهو من قبيلة عربية كبيرة من القبائل المعروفة عند الفرنج باسم Sarrasins وهي محرفة من لفظ « الشرقيين » . لقد كان اذينة يتصرف في صباه كما يقول المؤرخ (ن . بوليون) تصرف الرجل ، وكان يصطاد السباع والفهود والذئبة وغيرها من الوحوش الضارية . وكان يحتمل في سهولة ويسر الحر اللهب والبرد القارس في السهول والجبال والغابات . كما كان يتحمل متاعب هذا الصيد في رضى وسرور ، وبفضل هذه الرياضة المفضلة استطاع الا يرى أوار القبيظ ، واهباء الزوابع في معارك فارس غير امر عادي لا يعبأ به ولا يؤبه له .

لقد كان اول عمل قام به اذينة العربي خلع سلطنة الرومان ، وتحرير تدمر ، والتحالف مع سابور ملك فارس الذي كان خطره يقترب يومئذ من بلاد الشمال .

غير ان سابور مني في احدى معاركه مع الرومان باندحار هائل ، حمله على التراجع الى الفرات ثم الى فارس ، ومكن للخطر الروماني ان يقترب من الشرق ومن تدمر بالذات ، فأدرك اذينة ان الرومان سيحققون جيشه ، وسينتقمون منه جزاء ثورته عليهم ، وادرك ان سابور حليفه لا يستطيع تقديم المعونة اليه بعد اندحاره الفظيع في بر الشام امام جحافل الرومان ، فلجأ الى ذكائه وسعة حيلته كيلا يعرض تدمر لاستعمار روماني جديد .

وقرر سلوك نهج سياسي جديد ينقذ مملكته ، فأعلن ولاءه للرومان ، وذهب لمحاربة سابور باسمهم ، ثم ارتد الى تدمر وقبض فيها يترقب الفرص ويتحينها للسيطرة على جميع البلدان العربية وضد النفوذيين : الروماني والفارسي معا .

ومرت رومة بعهد الانحطاط والضعف ، وكان سابور قد استعاد قواه فشن على

الرومان حرباً ثأرية كتب له فيها النصر .

وفكر أذينة في موقفه تجاه هذا الوضع ، واحس ان سابور يبيت له الشر فحاول ان يتقرب اليه تجنباً للاضطهاد به ، إلا ان سابور داخله الغرور والصلاف فكان لا مفر لأذينة من ان يحاربه .

وقدر للبطل العربي ان يدحر سابوراً وجيشه ، وان يحطم كبرياءه وعنجهيته ، بما أوتيته من قوة البأس والذكاء ومهارة التصميم .

وانكفأ أذينة لمقاتلة الرومان فسار الى حمص ، وحاصر الجيوش الرومانية فيها وتمكن من فتح المدينة وقتل قائدها (كياتوس) .

وتم لأذينة اخراج الرومان من شمالي سورية ، وتحقيق على يده قيام مملكة عربية مستقلة .

وكان اول ما سعى اليه مؤسس هذه المملكة ، هو القضاء على الاضطهاد الذي كان نصارى الشام في انطاكية وحمص ودمشق وقيصرية عرضة له ، فأطلق لهم الحرية الدينية واوعز الى الوثنيين - وكان هو وثنيًا - اوعز اليهم الا يتعرضوا للنصارى في قضاء فروض عبادتهم ، وابعح لهم إقامة البيع والكنائس .

ولكن أذينة لم يفسح له لتزدهر الحضارة العربية التدمرية على يديه ، فكثيراً ما يكون المصلحون الثائرون أول الضحايا لثورتهم . وهكذا قدر لأذينة ، فلقد غدر به احد ابناء عمه ، بينما كان يتوجه الى حمص لقتال القائد الروماني هرقلوس .

قد يقول قائل : ان الطموح لا الاحساس العربي هو الذي دفع أذينة لان يبني ملكاً له ... فنجيب : ان عنصر الطموح لا يمكن نكرانه حقاً ، ولكن الاحساس القومي كان هو أهم الدوافع التي حملت أذينة على التمرد والوقوف في وجه أقوى دول عصره ، بل الدولتين اللتين تسيطران يومذاك على العالم وأعني بهما الفرس والرومان .

فلقد حز في نفس هذا البطل ان يظل قومسه مطايا اطماع الفاتحين ، وان تظل بلادهم موطنًا لسنابك خيلهم ؛ فأثر المغامرة ونذر نفسه لتحريرهم من العبودية ، وجاءت من بعده زوجته الزباء او زينب او زنوبيا كما اطلق عليها الرومان واليونان ، جاءت من بعده تكمل رسالته وتعمل على ازدهار المملكة .

فلقد تولت الحكم في سنة ٢٦٧ ميلادية ، بعد أن ورث ابنها البكر « هبة اللات » لقب ملك الملوك ومصلح الشرق . . واخذت تنظم شؤون مملكتها وتوجه اهتمامها - جل اهتمامها - الى الجيش ، وتشرف بنفسها على التمرينات العسكرية ، وتشاطر جندها شظف العيش وخشونة الحياة ، وتعد نفسها لتحمل اعباء القيادة .

وكان النفوذ الروماني بعد وفاة أذينة قد انبسط من جديد على المملكة التدمرية فراحت الزباء ترقب الاحداث ، حتى اذا دبت النفوضى في الامبراطورية الرومانية اعلنت ابنها « هبة اللات » قنصلًا ثم امبراطوراً .

وكانت الخطوة الثانية التي أقدمت عليها هي ضرب نقود باسم ابنها الامبراطور ووضعها في التداول ، وفي عام ٢٧٢ ميلادية قامت بهجوم صاعق على مصر فخلصتها من قبضة الرومان ، بعد ان سیرت لهذه الغاية جيشًا مؤلفًا من سبعين الف مقاتل يقوده (عبدوس) أو زيد كما يذكر الاستاذ كرد علي في كتابه خطط الشام .

وما كادت انباء النصر تصل الى تدمر ، حتى سارعت الزباء فأعلنت نفسها قيصرة و « هبة اللات » قيصرًا ، وضربت نقوداً جديدة تحمل صورتها ونقبتها الجديد كما تحمل صورة « هبة اللات » ولقبه .

وسار عبدوس الظافر الى آسيا الصغرى ، فبلغ أنقرة وسواحل البوسفور ، وكانت غاية زنوبيا من هذه الحملة الجديدة ، تحرير آسية من النفوذ الروماني ، ولكن جيشها عاد دون قتال عندما لاحظ تصميم الآسيويين على ابقاء النفوذ الروماني .

وكان من الطبيعي ان يحقد الرومان على تدمر ؛ وان يحاولوا هدم سلطانها ، فحشدوا قواهم ، وهاجموا مصر ، فأعادوا سلطانهم اليها رغم مقاومة المصريين

الضارية . عندئذ رأت زنوبيا ان تركز الدفاع عن مملكتها ، ولكن (اورليان) امبراطور الرومان ، وهو الذي يعرف بسالة التدمريين ، لجأ الى الحيلة والخديعة فتظاهر بالانكسار في احدى المعارك ورجع عن انطاكية ، ثم أمر جنوده بنصب كمين وراء تلال المدينة وبساقينها .

وظن التدمريون ان الرومان قد هُزموا فعلا ، فاندفعوا ليقعوا بالكمين ويمنوا بخسارة فادحة ، رغم براعة عبدوس في الانسحاب الى حصص ليحعل منها خطاً دفاعياً جديداً عن المملكة .

وفي سهل حصص رأت الزباء ان كفة الرومان العسكرية هي الراجحة فجمعت مجلس قيادة الحرب للتشاور ، وسرعان ما تقرر التراجع الى تدمر واتخاذها حصناً أخيراً .

وحاصر أورليان تدمر و طال حصاره لها ، وعز على الزباء ان تستسلم فامتطت هجيناً وانطلقت قاصدة بلاد فارس لتطلب نجدة سابور ، ولكن جنود الرومان أدركوها وهي تعبر الفرات فقبضوا عليها وأعادوها اسيرة .

وعظم عليها ان تنهار مملكتها ، فأعلنت وهي في اسرها الصوم عن الطعام الى ان فاضت روحها ، فانطوت بموتها صفحة من صفحات النضال العربي ، وانهارت تدمر عاصمة الثورة على الاستعمار في القرن الثالث الميلادي ، وحاضرة العاهلين العربيين العظميين أذينة والزباء .

الفساسنة وبنو تغلب ومملكة سبا :

تعالوا معي نسير عبر التاريخ ... ونودع تدمر وحضارتها ، لننشر صفحة اخرى من صفحات المجد العربي قبل الاسلام .

ها نحن أولاء .. في مشارف الشام بين مضارب الغساسنة ... فهموا نستنطق التاريخ عن اجماد هؤلاء السمر الأشاوس ، الذين بنوا ملكاً ، وأقاموا حضارة ، قبل انبثاق الفجر الاسلامي .

ان الحديث عن الحضارة النامية في مراتب هؤلاء العرب حديث محبب ، ولكنه اثير ايضاً عن قبيلة اخرى مسيحية عربية ، هي قبيلة بني تغلب التي اشتركت في معارك عربية خالدة ، واشتهر منها شاعر كبير هو الأخطل . وأجيدني الآن مدفوعاً لتلمس معالم حضارة عربية اخرى في الصحراء العربية السمراء ، وفي اليمن التي أطلق عليها الفرنجة منذ القدم لقب : العربية السعيدة .

تعتبر بلاد العرب الجنوبية من أقدم مراكز الحضارة عند الامم السامية ، إذ كان موقع اليمن الجغرافي من أهم الاسباب التي ادت الى نشوء حضارة مترفة في ديارها ، فسبقت بذلك المناطق الشمالية من الجزيرة العربية . وتتمتع هذه المنطقة بخصب وافر في جبالها العالية وهضابها المخضرة ، وسهولها الفسيحة ، كما تتمتع بحكم وجودها على طريق الهند ، بموقع تجاري بالغ الاهمية ، وقد ساعد هذان العاملان من ازدهارها ونمو الحضارة فيها ، ولقد أطلق الدكتور حتي على عرب اليمن اسم فينيقيي البحر الجنوبي ، لانهم رسموا خرائط هذا البحر ، وسيطروا على رياحه ، وتحكموا في تجارته في الالف والخمسمائة سنة قبل المسيح .

وكانت لليمنيين طرق تجارية أخرى في البر من حضر دوت الى قارب ، ومنها الى مكة والبصرة ، ثم الى سورية ومصر والعراق . وكانت لغة سكان تلك البلاد اللغة الحميرية ، أي اللهجة العربية الجنوبية ؛ الى زمن يقرب من الفتح العربي ، حين احدثت اللهجات الشمالية تتمتع بقوة وعزة ، بينما اخذت اللهجات الجنوبية تتدهور . وكان ذلك لفقدان بلاد اليمن حريتها واستقلالها ، فتدهورت حضارتها وانحطت ، فاستلزم ذلك انحطاط اللهجات الجنوبية ، وتلاشت لتحل محلها العربية الشمالية التي كانت تتمتع بدفق من الشباب والفتوة .

اما الدول العربية التي تداولت الارض اليمنية ، فأقدمها الدولة المعينية التي ازدهرت في اليمن بعد سنة ٦٥٠ قبل الميلاد .

وقد سيطرت في نهضتها على معظم اقسام الجزيرة العربية ، وما تزال معين العاصمة التي تحمل اسم الدولة المعينية الكبرى حتى اليوم ، كما ان معان المصرية تدلنا على امتداد تلك الدولة الى أطراف البلدان المجاورة للجزيرة .

ولقد استطاع المؤرخ « مولر » ان يكتشف اسماء ستة وعشرين ملكاً من ملوك دولة المعينين اليمنية .

وكان السبائيون ورثة المعينين ، قد بسطوا نفوذهم وسيطرتهم على جنوبي الجزيرة العربية وحكموها ، وكانت عاصمتهم قديماً (مراوح) ثم اصبحت مدينة مأرب المشهورة بسدها العظيم ، وكانت هذه المدينة ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب .

المملكة الحميرية :

وبعد سنة ١٥٥ قبل الميلاد ، يبدأ عهد دولة عربية جديدة ، هي المملكة الحميرية الاولى التي امتد بقاءها حتى سنة ٣٠٠ بعد المسيح وكانت عاصمتها (ظفار) ويروي لنا التاريخ قصة القائد الروماني (اليوس غالوس) الذي حاول غزو اليمن على رأس جيش روماني لأهميتها التجارية ، ولكنه لم يوفق في غزوه وعاد مع بقايا جيشه المنهزم الى مصر .

في هذه الحقبة من التاريخ ، عبر العرب أرض كوش ، ووضعوا فيها اسس المملكة الحبشية ، فكان لهم الفضل الاول في انشاء تلك الحضارة الحبشية . وبنى ملوك حمير ، تخليداً لاسمهم قصر رغدان ، الذي بقي قائماً نحو (٦٠٠) سنة وشاهده الهمداني ووصف روعته ، وما حوى في بنائه من آيات الفن والزخرف .

حضارة اليمن :

وفي القرن الاول بعد المسيح، ينحرف التاريخ انحرافاً خطراً ؛ يؤدي في النهاية الى تلاشي سيطرة كل من اليمن وتدمر والبتراء ، وذلك ان العرب اليمنيين وكانوا كما قلنا يسيطرون على طرق التجارة بين الشرق والغرب ، ويفرضون رسوم المرور على البضائع ، ويجبون منتجات بلادهم بأسعار باهظة . وكان عرب البتراء وتدمر والعراق ، يتحكمون من جانبهم بالتجارة الشرقية الى ان سقطت مصر بيد الرومان ؛ فأعاد بطليموس الثاني فتح القنال القديمة بين النيل والبحر الاحمر ، وتمكن الرومان بمساعدة الأحباش من الوصول الى المحيط الهندي ، فتم بذلك القضاء على السيطرة التجارية لليمن والبتراء وتدمر . وبدأ عهد الانحطاط في اليمن مع قيام الدولة الحميرية الثالثة ، التي تدخل المسيحية واليهودية في ايامها بتلك الاصطناع ، فتستبدل الحكم وينقسم عرب اليمن الى يهود ونصارى ، ويتآمر « ذو نواس » آخر ملوك حمير على نصارى اليمن الغربي ، لخضوعهم لنفوذ الحبشة ، فيدبر لهم مذبحة في عام ٥٢٣ م ويتنادى النصارى الى الثأر ، ويعبر سبعون الفا من نصارى الحبشة بأمر من امبراطور بيزنطية ارض اليمن ، ليتحكموا بأهلها جميعاً من نصارى ويهود بعد ان زعموا انهم جاءوا لحماية النصارى والثأر لهم .

وتجدر الملاحظة هنا ان هذا الاسلوب الاستعماري ، ظل الى يومنا هذا وسيلة بارعة من وسائل الدول الكبرى لتفريق الشعوب الصغيرة واستعمارها . وفي هذه الفترة يتهدم سد مأرب العظيم على يدي القائد الحبشي (أبرهة) ويتعذر ترميمه ، ويهجر بنو غسان واللخميون اليمن الى حوران والحيرة ، وكذلك يفعل الكثيرون من بني طي والتنوخين وكندة ... وكثير غيرهم من عرب اليمن .

وبقيت اليمن مستعمرة حبشية الى ان قام (سيف بن ذي يزن) يريد تحريرها بتعاونه مع الفرس ، ولكن آمال القائد العربي اصبحت بالفشل حين وجد ان الفرس ينوون الحلول مكان الجيش الحبشي في استعمار اليمن .

وهكذا استبدلت اليمن استعماراً حبشياً باستعمار فارسي، ظل مسيطراً الى ان ظهر عرب الشمال في القرن السابع بعد المسيح في احدى الحملات التي شنها اتباع الدين العربي الجديد .

نهاية المطاف :

هذه ملامح من حضارة العرب قبل الاسلام ، وليس باستطاعة أي مؤرخ معها كانت مقاصده وغاياته ، ان يشوه حضارة اليمن الزاهرة ، أو ان يتجاهل الانباط ، حلقة الاتصال بين تدمر وغزة ، وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن ، او اهمال حضارة سلع وتدمر والمناذرة والغساسنة .

وهكذا نسير في معارج التاريخ ، فنجد المسيحية تدخل الجزيرة فيتنصر الكثيرون من ابناءها ، ثم تنبثق الارض العربية عن الرسالة المحمدية ، فيكون الاسلام دين القومية العربية وابناً عبقرياً لها .

موجات الاستعمار والبلاد العربية :

كيف لا يكون العربي عربياً لأنه اعتنق المسيحية او الاسلام ؟ وما علاقة الدين — كرسالة سماوية انسانية لكل الناس — بالقومية المختصة بشعب من الشعوب ؟ لقد كانت العروبة ثم كانت المسيحية ، وكان بعدها الاسلام فعاشت هاتان الديانتان السماويتان في الارض العربية شقيقتين متجاورتين متجانستين . فمن اين جاء هذا الوهم الشائع بان العروبة تعني الاسلام ؟ وبأن المسيحيين في هذا الشرق العربي غرباء ؛ ليس لهم من اجداد هذه الامة العريقة ما للمسلمين ؟

انه الاستعمار... الاستعمار الذي يحاول دائماً ان يندس في صفوفنا ليفرق ويسود ، الاستعمار التركي الذي جاء من قبل ليحتضن المسلمين كما يدعي ، فاذا به نير ثقيل

يثقل أكتاف المسلمين قبل المسيحيين ، وإذا بالثورة التحريرية تنطلق من صفوف كل المواطنين الشرفاء ، دون النظر الى دياناتهم المختلفة ، وإذا بأعواد المشانق ينصبها السفاح التركي جمال ، لقادة الحركة التحريرية مسلمين ومسيحيين ، وإذا بالدماء المهرقة تنصهر في وحدة وطنية رائعة ، هي شيء من هذا القبس الحي المتوثب في روح كل فرد . أنه الشعور القومي ، الشعور بالوطنية الصحيحة الصادقة التي تلف الجميع في النكبات وتصهرهم ببوتقة الوحدة الوطنية .

ويمضي الاستعمار التركي غير مأسوف عليه ، وتنشق هواء الحرية ملء رثائنا ولكن هذه الحرية ، ما تلبث ان تختنق بين قبضتي عملاق جديد من عمالقة الاستعمار ، انه الاستعمار الفرنسي وزميله الانكليزي الذي جاء هذه المرة ليحتمي المسيحيين من المسلمين . وكانت وسيلته هذه المرة تجزئة الوطن الواحد الى اوطان وكيانات ، كان بعضها من نصيب فرنسا ، والبعض الآخر لقمة سائغة للانكليز .

ولكن الاستعمار أثبت مرة أخرى انه لا يحمل اليمن والخير والسعادة لفريق من المواطنين دون الآخر ، غير انه يحمل لهم جميعاً الذل والمكر ، والحقد والاستغلال وشروط العبودية . فاذا بالنضال من اجل الحرية يتجدد قوياً عنيفاً عند جميع المواطنين مرة أخرى تحت راية الوطنية الحقة ، التي يتسع صدرها لجميع الديانات السماوية الكريمة .

هكذا شاء الاستعمار ان يقنع الاقلية المسيحية في الوطن العربي ، أن وحدة هذه الأقطار هي وحدة دينية فحسب ، يجمعها الاسلام ، وتاريخ الاسلام ، ورسالة الاسلام ؛ ولكن الفئات الواعية كانت تلقم هذا الاستعمار حجراً كلما طاب له ان يردد هذه النغمة ليمتص خير ارضنا ويسرق رخاءها .

ليعلم الاستعمار :

ألا فليطمئن الاستعمار أياً كان نوعه ، على سلامة المواطن ، اي مواطن في هذه

الديار ، وليفهم ان المسيحيين من هذه الامة عرب قبل غيرهم ، لهم ما لغيرهم من
أعجاد العروبة - ساءوا في بناء عزها ، وانهمرت دماء شهدائهم مع دماء اخوانهم
المسلمين ، كلما تعرضت هذه البلاد لجور الطغاة الغزاة ونكباتهم .

وليعلم الاستعمار الذي ينصب نفسه وصياً وحامياً لحقوق الشعوب الصغيرة ،
ليعلم اننا جميعاً بخير ما دام هو بعيداً عنا .

لقد كان هذا السبب من اهم الاسباب في اشاعة هذا الوهم المغرض ، ولكنه
لم يكن الوحيد ، فلقد فصلتنا عهود الاستعمار البغيضة عن التاريخ العربي ، فجهلناه
أو جهله معظمنا جهلاً فاضحاً . وساعد على ذلك الثقافة الاجنبية التي لم تكن تلقننا
العلوم فحسب ، بل تلقننا معها ان ننسى تاريخنا ، وان نهمل تراث اجدادنا الحضاري ،
ليكون جيلنا جيلاً منقطع الصلة بماضيهِ ، يعيش حاضره الاسود القاتم بائساً محطماً ،
فيندفع الى احضان الحضارة الغربية التي تقدم اليه على اطباق من ذهب ، فيكون بذلك
قد فقد عروبوته الاصلية ، واصبح عضواً مشلولاً غير ذي فاعلية في جسم العالم الكبير .

كانت هذه الاسباب تتراكم على الشرق العربي ، في فترة سوداء من تاريخه ، في عصر
المخطاط تروج فيه الشائعات ، وتسود فيه المغالطات ، وبعض الناس ، والواعون
منهم يحاربون اخطاراً أكبر من هذه ، والبعض الآخر يتخبط في محيط من الجهل
طاغ ، ونحن واثقون في هذه الفترة التحررية التي تحياها بلادنا ، ان الضباب سينقشع ،
وان الحقائق ستبدو جلية واضحة حين يكتب تاريخنا من جديد ، وحين نقضي
نهائياً على هذا الدخيل الكريه ... الاستعمار ، وحين نقضي على اطماعه واذنابه
ومطاياه في بلادنا .

دور الاسلام في الوطن العربي :

بقي علينا ان نوضح مكان الاسلام في الوطن العربي .

ان القومية كما نعلم هي هذه الارض التي تنمو عليها مواهب الأمة من آداب وفنون وعلوم وحضارة . والاسلام في تاريخ العروبة ثورة تحريرية نضالية وانتفاضة جريئة لهذه الأمة ، كشفت عن غيوم الجاهلية ، وحررت الشعب العربي في سورية ولبنان وفلسطين والاردن ومصر من نير الرومان ، كما حررت العراق من نير الفرس .

انه انقلاب جذري في حياة العرب وفي نفوسهم ، أهملهم لقيادة العالم القديم لتحقيق مثل قيمة ، وحمل رسالة الخير والحق والعدالة لكل الناس .

فالاسلام اذاً في حقيقته يفصح عن مواهب العروبة وعبقريتها ، ساهم في تاريخها وحمل رسالتها فامتزج بها في اجدادها . ومع هذا فالاسلام ليس العروبة ، والقضية العربية ليست قضية اسلامية لان في العرب مسلمين وغير مسلمين . ولأن القومية غير الدين .. والا لوجب ان يؤلف المسلمون في العالم كله قومية واحدة ووطناً واحداً، وان يؤلف المسيحيون بدورهم قومية واحدة ووطناً واحداً، وهذا مغاير للحقيقة والواقع .

ولماذا نذهب بعيداً نسبر اغوار التاريخ ، ونكشف حقائقه ونحن نعيش واقعاً جلياً يوضح القضية من جميع جوانبها .

أفليست تركيا المسلمة من الدّ أعداء القومية العربية ؟

الاتحضر هذه الدولة المسلمة اسرائيل المسخ؟ وتشارك معها ومع بريطانيا وفرنسا في التآمر ضد القومية العربية المتوثبة ؟ والتي تنتفض من جديد لتستعيد مركزها في العالم ، ولتحمل رسالتها في الخير والسلام بعد ان فرض عليها الاستعمار هذه الهبة الطويلة .

أفلا نجد تركيا المسلمة، تطل من وراء كل مؤامرة اجنبية تكيد لهذه الامة التي

تنشد السيادة والحرية ، فاذا بالارض التركية مسرح حيكت عليه وتحاك كل مؤامرات الاستعمار ، واذا بالمسؤولين هناك اقطاب في تدبيرها ؟

وايران والباكستان المسلمتان ، الا تحالفان مستعمرينا وناهي خيرائنا دون ان تردعها رابطة الدين .

رسالة المواطن العربي :

في هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا وحياتنا ، وفي هذه الايام العصيبة التي تمر بها دنيا العرب وهي تحارب الاستعمار بكل ما تملك من بأس وقوة ، وتتطلع الى الغد المشرق ، وتناضل الخونة والجواسيس وتجار الوطنية ، فتخوضها معركة حياة او موت ، معركة شعب اصيل ذي حضارة واجداد ، معركة شعب يتطلع الى الماضي يستمد منه عزماً وإيماناً وتصميماً ، وتصهره الآم الحاضر فيحاول ان يخلق من كل ذلك مستقبلاً جديراً بأمته ، وان يتابع الرسالة الخيرة التي بشر بها اجداده .

في هذه الايام يجدر بكل مواطن ان يعي هذه الحقيقة ، وهي ان رسالة القومية العربية الجديدة ، هي رسالة القومية التي لا تعرف العصبية او الحقد ، رسالة القومية المتفتحة ، التي تود ان تعيش مع باقي القوميات في سلام وامان ، لا استعمار ولا استغلال ولا عبودية .

هذه القومية التي تضمننا مسيحيين ومسلمين ، ساهمنا جميعاً في بناء صرح حضارتها ، وامتزجت دماؤنا جميعاً في معاركها ، انها ارث لكل منا ؛ لم يورثنا اياها نبي من انبياء الله ؛ ولا حملنا اياها دين من الاديان ، بل كونتها لنا طبيعة حياتنا ومبر ارتباطنا .. ارضنا هذه التي نحيا من خيراتها ، ونتنشق نسماها ، ونحرث سهولها ووديانها ، ونسكن جبالها وشطآنها .

اجل ان العروبة هي واقعنا الذي لاغنى لنا عنه ، وحاضرنا الذي لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذي لا وجود لنا الا به ...

نداء ونصيحة :

وليعلم الضائعون وراء سراب الاستعمار ، ان كل كيان في الاوطان العربية لا يستند الى عنصر الوطنية العربية ، هو كيان اعرج أبتري ، وان كل دولة قنبي أركانها لهدف ديني ، وعلى طريقة طائفية كاسرائيل مثلا ، هي دولة فاشلة ، تحييها الظروف وتميتها الظروف ، وتقويها المناسبات وتفننها المناسبات ، وانها تحمل طبيعة فناءها في ذاتها ، وسر زوالها بتكوينها .

ونصيحة اخيرة الى المبهورين بدعاية السوء ، الوجلين من العروبة ، نصيحة الى هؤلاء ألا تغرهم بهارج الاستعمار ، فسرعان ما يقلب لهم ظهر المجن ، ويتحول منهم اليهم اذا اقتضت ظروفه ومصالحه . ولعلموا ان كانوا غيارى على ابناء وطنهم ان العروبة اسمى درجات الوطنية وارقى مراقيها .

ان معركتنا مع الاستعمار هي المعركة الفاصلة معركة المصير الى الاجيال القادمة ومبدأنا الذي لا يتحول هو : نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد .